http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1909) السنة الثامنة - الاحد (19) ايلول 2010

مشروعية الثقافة في التغيير

ياسين طه حافظ

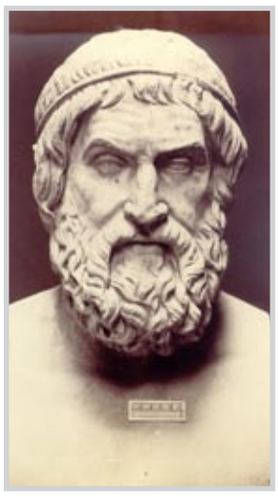

لسنا على خلاف مع أحد يقول ان الجماعات الإنسانية تشترك في امتلاك الإرث الثقافي البشري. لكننا نختلف حين يهمل البعض الفوارق في استيعاب هذا الخزين ويهمل التجارب الشخصية معه.

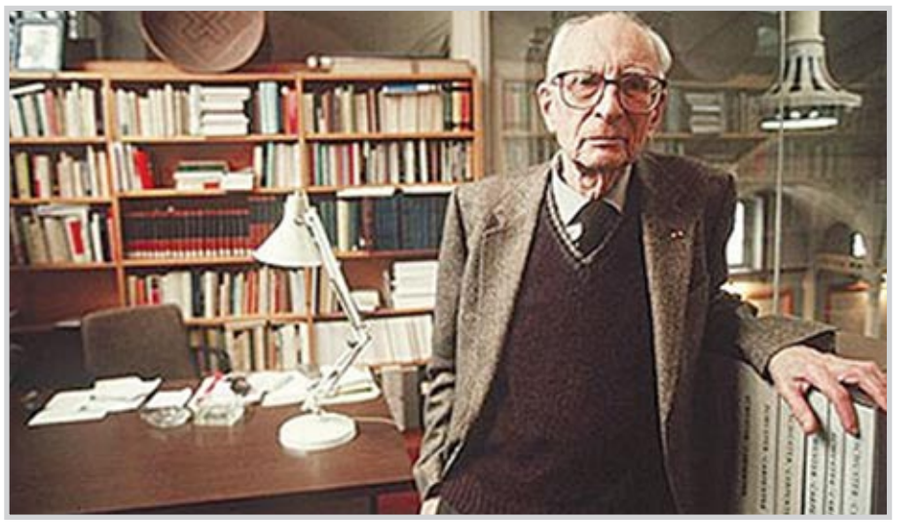

٢-١

للثقافة فعل في جماعة يختلف عن فعل الثقافة نفسها في جماعة أخرى. وكذا الحال بين الأفراد. وحتى الثقافات المنبثقة او المتطورة من ثقافة ما، هي ثقافات تحمل اختلافاتها باختلاف طرائق تطورها وتفاعل الناس معها.

وما يعقد المسألة أكثر ان الثقافة عادة ما تزوّد الأفعال بتوجيهاتها. فلا استعمال ماكنة الطباعة واحد، ولا استعمال الآلة واحد، ولا طرائق تناول الطعام واحدة، ولا الفعل الجنسي او النوم او تربية الأطفال. وهذا ما يزيد او يُبقي الاختلافات بين الجماعات الإنسانية كما يبقي الاختلافات بين أفراد كل جماعة .

ان لدينا أمثلة كثيرة على عدم استقلال "عِلْميّة" الطبيب الجراح، وان طبيبين من التخصص نفسه ولهما زمن خبرة واحد وتقارب في الذكاء الشخصي، يختلفان في التصرف لأسباب أخرى لا علاقة لها بالأدوات او المواصفات. بل ان وراء الفعل الإجرائي مؤثرات واضح أثرها، مجهولة جذورها الثقافية.

الثقافات، اذن، مثلما هي تراتبية، هي مختلفة أيضا.

ومثلما تزيح ثقافة مهيمنة. ثقافة أخرى، الثقافة الأخرى لا تستسلم طوعاً، وإذا استسلمت تترك بعضا من تأثيراتها تعمل في الثقافة الضد، لا لان الأولى قوية ولكن لأننا في الأساس لا نزال بحاجة اجتماعية تسوّغ حضور الثقافة الجديدة.

نعم نحن نريد ثقافة ولا معنى للعصر بلا ثقافة والحضارة ناتج مكونات ثقافية، لكننا نتحدث عن الفعل القسري للثقافة، أي ثقافة، ضد أخرى. ليس هذا امرا هينا اذا علمنا "ان الثقافة هي جملة المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكون تراث الأمة..." والقسر هنا، عمل لا يمكن قبوله بافتراض الصلاح وعدمه. فنحن لا نحتكم بالأمور النسبية، كما ان ضرورات التقدم والمستقبل لم تحدد بعد بشكل يرضي كل المجتمعات او كل الثقافات.

ان وحدة الجنس البشري منطلق جيد وذو جدوى مشتركة. كما انه إنساني مكتمل الإنسانية. ونحن لا نأتي بجديد حين ندعو لذلك. فذلك كان قبل التوسعات الإقطاعية وقبل الخطوط المنقطة وغير المنقطة على الخرائط وقبل القوميات وتحديد الانتماءات، أي حين كانت البراءة ولم تكن للمنفعة مكاتب..

ان صراع المصالح، ثم الصراع الخفي مرة والواضح مرة للثقافات، جعلا للثقافات الحديثة المدعمة بالمال والسلاح، دوراً خطيراً في الهيمنة والتنكيل وابتداع الحجج العقلية للتدمير والتغيير، ليس كل فعل ثقافي هو ثقافي صرف. قد يحمل الفعل الثقافي في داخله "عدوانية" من نوع ما تحدث ضرراً من نوع ما، وتجاوزا على الإنسانية ومستقراتها المعرفية من نوع ما أيضاً. المعارف والقيم الثقافية المستقرة احتياجات أمة او مجتمع في مرحلة حضارية معينة هي فيها. فقضاء الثقافة الأوربية، والأمريكية من بعد على ثقافة الهنود الحمر، كان عملا مقبولاً حضاريا وأوجدت له الثقافة الكاسحة مسوغات عقلانية. لكن المثقفين الأمريكيين أنفسهم، والأوربيين، وبعضا من مثقفي العالم، أدركوا من بعد ان خسارة حصلت وانهم راحوا يجمعون الوثائق ويدققون في تفاصيل الأحداث لفهم بعض جوانب تلك الحضارة. وعندنا في العراق، الثقافة الشرسة التي قررت تجفيف الاهوار ومساندة الحدث الطارئ على الدائم او الأبدي، ادت إلى نتائج فادحة لبيئة البلاد وطبيعتها. وان الثقافة التي ارتضت ذلك لسبب عسكري مؤقت، كان رضاها على حساب ثقافة أخرى لها مدركات أخرى. وهذا ينطبق على أمور كثيرة في الجراحة وشق القنوات والأنفاق واستنزاف باطن الأرض، وقضية الأوزون وما يقع في الكون من أخطاء هو نتاج ثقافة خاطئة.

قد تكون مناسبة لان أقول ان الإغريق انتبهوا لهذه المفارقة بين ثقافة وثقافة: ففي مسرحية "الفرس" لاسخيلوس نجد رأيين لثقافتين من زمن واحد، فاكزركسيس في المسرحية مدان بالإفراط في الزهو والتعجرف. – ليس لأنه فقط حارب الإغريق، بل لأنه أيضا ارتكب شيئا فظيعاً ضد الطبيعة .. لقد شيد قنطرة او ممراً عبر الدردنيل، فهو بالنسبة لاسخيلوس والاغريق قد ارتكب أمراً شنيعاً لكون الطبيعة لا يجوز إيذاؤها على هذا النحو الطائش ... ومثال هذا التضارب يحصل اليوم في أذهان العلماء التطبيقيين والتكنولوجيين ويشغل مثل هذا التضارب أفكارهم بوصفها لا إجراءات آنية، ولكنها منافع نسبية ومصالح غير متفق على سلامتها. وبالنسبة لعصرنا وانغمار الشعوب في التكنولوجيا الغربية يتضح تضارب الثقافات أو تضارب المصالح بصورة قد تسبب التصادم. نعم، ان انتقال المضمون الثقافي من الجماعة إلى الأمة ومن الأمة إلى الأمم ثم إلى الإنسانية كلها، يعدّل كثيرا في المفاهيم، و في الأقل يجعل العزاء في سوئها انها أفعال ليست من طرف معاد، ولكنها نتائج أعمال إنسانية مشتركة. وهنا يصبح الاهتمام لا بما "يجب" ولكن بما عليه الثقافة في المجتمعات للإفادة من المشتركات ولايضاح مصلحة الإنسان بعامة، وهذا يعني تهيئة فرصة لان تختار الجماعة، أو الأمة، من الثقافة الأخرى ما هي بحاجة اليه ، ما ينفع واقع الناس هناك.

لن تختفي الخسارات، بل في الأقل سنكون تحت إشراف منهج فيه رؤيا مستقبلية وفيه علمية اشتركت في صنعها الإنسانية لا الأعراف ولا الإقطاعيات او المصالح الطارئة او "المستقبلية" التي تجعل من الأمة بديلا عن العالم او عن الأمم مجتمعة.

ان اهتماماً عقلانياً بالحياة على الكوكب وبالإنسانية يهذب الفرد، وتهذيب مجموع الأفراد يهذب المجتمع، ثم المجتمعات. وهذا اتجاه ليس مثالياً او مستحيلاً في عصرنا، حيث بدأت تزداد المشاركة في المعارف والتجارب والخبرات والمفهومات، كما بدأت المشاركة في الرساميل الكبرى، من توحد الشركات والتوحد لحد كبير في الدراسات ومناهجها ونظمها. نحن اذن في بداية تحوّل خيّر تخلّصنا فيه من رأس الحربة في عدوانيته، وان لم نعدمها تماماً بعد. وما نسعى اليه اليوم هو الدعوة لإيقاف التجاوز وتوفير مشروعية مُتفق عليها للتغيير. بهذا نبعد الضرر غير المرئي آنياً فيكون مبتغانا ثقافة يحدد مستجداتها النمو الطبيعي للمجتمعات. هذه الثقافة المتمنّاة والمبتَغاة سوف تتميز ببعدها الجماعي وجدواها المستقبلية وحميميتها الاستكمالية للثقافة المتقدمة، ثقافة جديدة تتنامى من دون أضرار، قدْر الإمكان، بما لا يُرى من امتيازات التجارب الإنسانية التي صنعتها والتي قد تدّخر ما يؤسَف لخسرانه.

هذا الكلام يأخذنا بلطف ومرونة إلى قول "شتراوس" : "البربري هو ذلك الذي يعتقد بالبربرية ..." وأظنه يعني ذلك الذي يتهم غيره بالبربرية، الذي يجرد غيره من إنسانيته وثقافته، او يظن غيره بلا ثقافة!

ان ثقافة "الحلول محل" أو "الاكتساح" او "الإزاحة" من غير توفير متطلبات الحاجة للجديد، هي مهما اتخذت من ذرائع، أعمال لا تخلو من عدوانية، ان لم تكن العدوانية صفة قصدية لها. النيات الحسنة وحدها غير مقنعة علمياً لأنها أولاً غير مؤكدة الأسباب وثانياً غير محسوبة النتائج. كما ليس لنا ما يثبت انها نيات حسنة أصلاً! وهذا ما يقال بالنسبة لأفعال "التثقيف الجمعي" فقد تكون هذه مفيدة لتسريع التحضر، الذي قد يكون مظهريا، او لتنظيم الحكم او الإدارة، او في أحسن الأحوال، لتساعد على تقدم الشعوب، كما يقال ... لكنها عملياً تعتمد أغراضاً خاصة ومنافع، فليست هناك مؤسسة او دولة أجنبية تبذل جهوداً ومالاً لسواد عيون الثقافة ان لم تكن ترمي من وراء هذه الثقافة المطلوبة إلى استثمارها، أي نوع من الاستثمار.

مهما كان سبب او غرض فرض هذه الثقافة، فهو عملياً، وبعد التحليل العلمي الموضوعي، عمل يتضمن تجاوزاً على "ملكية" وعملية التجاوز هذه لا تمتلك مشروعية قانونية ولا حتى أخلاقية مادام هذا التغيير قسرياً، فضلاً عن ذلك نحن غير متأكدين بشكل نهائي من سلامة هذه الثقافة الجديدة علمياً.

قناديل

عندما تكون المرأة تحت الصفر

لطفية الدليمي

نبّه ابن رشد في نهجه التنويري إلى أن تردي المجتمع الإسلامي وتخلفه يعود في أهم أسبابه إلى تردي أوضاع المرأة فيه.. وهو الذي جاهر في تعليقه على كتاب السياسة لأفلاطون: بأن النساء والرجال نوع واحد، وأن لا فرقَ بين الرجل والمرأة في الغاية الإنسانية، والفرق الوحيد الذي يراه هو في احتمال الكدّ الجسدي الذي يَقدر الرجل عليه أكثر من المرأة (وهذا مثار نقاش أيضا)، فيما إن النساء أكثر حذقاً في أعمال أخرى، كفن الموسيقى، وبما أنه لا فرق بين المرأة والرجل في الطبع الإنساني، وجب على النساء أن ينلن التربية نفسها التي يحظى بها الرجال وأن يشاركنهم سائر الأعمال، حتى الحرب والرئاسة.

وانتقد ابن رشد وضع المرأة في المجتمع الإسلامي حين قال: «وإنما زالت كفاية النساء في هذه المدن لأنهن اتُخذن للنسل وللقيام بأزواجهن، وكذا للإنجاب والرضاعة والتربية، فكان ذلك مبطلاً لأفعالهن الأخرى، ولما لم تكن النساء في هذه المدن مهيآت على نحو من الفضائل الإنسانية، كانَ الغالب عليهن فيها أن يشبهن الأعشاب، ولكونهن حملاً ثقيلاً على الرجال صرن سبباً من أسباب فقر هذه المدن، وبالرغم من أن الأحياء منهن فيها ضعف عدد الرجال، فإنهن لا يقمن بجلائل الأعمال الضرورية، وإنما ينتدبن في الغالب لأقل الأعمال، كما في صناعة الغزل والنسيج، عندما تدعو الحاجة إلى الأموال بسبب ((الإنفاق))، ولم يقل ابن رشد إنهن يعملن أو يقمن بالأعمال، بل قال (ينتدبن) أي بفعل سلطة مهيمنة هي سلطة المجتمع التي تتحكم في مسار الأحداث وتدافع عن مصالحها بطرق شتى وتحول دون تبوّؤ الآخر –وهو هنا المرأة– مكانة تستحقها أو مرتبة هي جديرة بها.

لم تكن المرأة مغيّبة أو مقصاة في العصور التي سبقت الحضارات القديمة، بل إن عصورا أمومية مرّت على البشرية كانت فيها النساء مهيمنات على المشاعيات الأولى قبل ظهور نظام الإنتاج الآسيوي، وكانت المرأة تمسك بزمام الإبداع وتسيّر الحياة وتبتكر وتنتج دون قيود مسبقة من قبل المجتمعات المتضامنة الفقيرة، ولكن، عندما اكتشفت المرأة تقنية الزراعة تغير الوضع البشريّ وحدثت قفزات في مجال إنجاز المرأة وتبدلات في البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البدائيّ، ثم أفضت المتغيرات الاقتصادية والطبقية اللاحقة، وظهور بذور الدولة، إلى تراجع تاريخي لدور المرأة، ووضع (إنتاج القوت) حدا للحياة الهمجية وعصور الصيد وجمع القوت وانتهت أزمة الطعام، وعند هذا الانقلاب الحضاري بدأ دور المرأة ومنجزها الرائد في تغيير نمط العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وبين جنسي النوع الإنساني، فبعد أن كانت علاقة اتحاد وتضامن إزاء الطبيعة تحولت عبر نشأة (الملكية الخاصة) التي أدت إليها الزراعة إلى علاقة مالك ومملوك وسيد وعبد، وبدلاً من أن يترسخ تحرر الإنسان من هيمنة الطبيعة، دفعت النساء ثمن اكتشافهن للزراعة عبودية عمل وكدح وفصل بين الجنسين امتدت حتى يومنا هذا.

يصف «رولان بارت» المرأة بأنها «المشغل الثقافي»، ويقول: «أنا لا أتصور حضارة من دون المرأة، وعندما تكون المرأة تحت الصفر فلا مجال مطلقاً للحديث عن شعب، وإنما يجب الانتباه إلى مأساة كبرى يواجهها قطيع بشري»، وقوله إن المرأة معمل ثقافي يؤشر فعلا إلى أنها منتجة النبع الثقافي للأمم والجماعة البشرية.

حين تقصى المرأة عن ساحة الفعل يتعطل المجتمع ويقف عمل «المشغل الثقافي»، ويعجز عن أداء دوره في بناء وجدان الأجيال الجديدة وتزويدها بمنظومات قيم متطورة، تؤمن بالتغيير والمعاصرة، وتجعل من هذه الأجيال شريحة متماسكة قادرة على المبادرة والفعل وإعلان آرائها بقوة وجرأة تليق بالشخصية المتفتحة الواثقة الجديرة بالشراكة وتفعيل الذات.

ورغم سياسات النظم الذكورية –التي تمثلها الدكتاتوريات والنظم الثيوقراطية خير تمثيل– فإن المرأة وعبر تجربتها الإنسانية الطويلة لبثت تدافع عن ذاتها بتكتيكاتها الخاصة وأساليبها المتجددة التي ترقى أحيانا إلى مستوى العمل السحري، وهذا أحد البراهين على طاقات المرأة اللامحدودة، فإذا امتلكت قدرة إظهار «الذات الفاعلة»، نجحت في أن تكون منتجة للثقافة والقيم، وحطمت قشرة التاريخ المتقرنة التي حجرت فيها دهورا و خرجت إلى سعة الوجود، عند ذاك يشفى المجتمع من إعاقته ويجري رد الاعتبار للجنس البشري، ويمكن أن نطلق عليه اسم (النوع الإنساني) القائم على شرط الشراكة الأبدية والتكامل بين الجنسين.

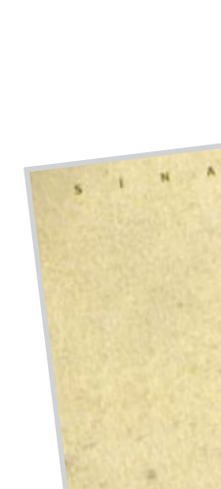

رد على مقال

السرد العراقي.. عالم من التألق الدائم

إلى : ميسلون هادي قبل غيرها

باسم عبد الحميد حمودي

أحسب أني أكثر من غيري –ربما – معني بغضب العزيزة ميسلون هادي، روائيتنا المبدعة وهي تعقب على الندوة التلفزيونية التي عقدتها قناة الحرة في العاشر من هذا الشهر وأدارها الأستاذ عارف الساعدي عن السرد العراقي وكان طرفا الحوار فيها الأستاذ عبد الستار البيضاني وكاتب هذه السطور .

مبعث عنايتي اكثر من سواي اني أكبرهم عمرا أدبيا واكثر من غيري اهتماما بدراسة السرد العراقي – في حدود من حضر الندوة – ولذلك، فأن العتب والانفعال يقعان عليّ في الأكثر الأعم ولكن :

١- لا توجد مغالطات في هذه الندوة حول كسل الكتاب وحول اختفاء الكاتب العراقي، وما عبر عنه البيضاني رأي يستحق النقاش لا الشجب،وما قلته عن كسل الكاتب الروائي بحكم ظروفه –سواء كان في الخارج او الداخل – صحيح الى الحد الذي لا يتطلب سرد كل هذه الأسماء العزيزة أكثرها علي والعزيز منجزها على الأدب العراقي.

٢- كان الحديث الاساسي في الندوة عن أجيال السرد العراقي، وهو أمر رفضت الروائية هادي اليوم التعامل معه باعتبار ان الكاتب المقتدر قد تجاوز أمر التجييل الى حالة تكريس الاسم خارج اطر التوصيفات و(الطابوات)النقدية على حد قول العزيزة ميسلون، وأنا افهم سر هذا الحماس للخروج من توصيفات النقاد ومدرسيتهم. ان (ميسلون هادي) قدمت لنا عدة روايات مهمة قبل سنوات الاحتلال وبعدها جعلتها تشعر أنها عصية على التوصيفات النقدية ، واقع الأمر أن لا أحد منا ومن سوانا خارج هذه التوصيفات .

قد تكون ميسلون الروائية المؤثرة قد طرحت الأمر على أن بعض الكتاب الذين تكرسوا خارج لعبة التوصيفات الخاصة بالأجيال،ولكني هنا اذكر العزيزة ميسلون بتلك الشابة المليئة حماسا التي أطلت علينا في ملتقى القصة العراقية الأول في صلاح الدين عام ١٩٧٨، تمثل جيل الشباب هي وعبد الله صخي وعلي خيون ،وأن أجيال القصة العراقية جميعا كانوا في ذلك الملتقى ابتداء من عبد المجيد لطفي ومرورا بمحمود عبد الوهاب وموفق خضر والربيعي وعبد الستار ناصر وسواهم، وأن صراع الاجيال كان قائما ولا أحد يخشى منه، خمسينيات وستينيات وسبعينيات، وان الجميع كانوا متواطئين على أن هذه التقسيمات لا تحدد أجيالاً بل عقوداً طفحت فيها تجارب جديدة، وهذه القاصة الشابة التي كانت حاضرة في الملتقى كانت محط رعاية كبار النقاد الحاضرين هي ميسلون هادي دون سواها، فلماذا لا تقر الروائية الكبيرة ميسلون هادي اليوم بحق النقد في تأكيد التقسيمات العقدية حيث تظل الستينيات، فيها محط جدل استمر الى اليوم وحتى خلال الندوة التي تحدثت هادي عنها، وكنت فيها مبررا لتفوق ذلك الجيل الغريب في التعبير عن رؤاه المحتدمة وإصراره على التجديد بلغة شعرية تداخلت فيها عناصر الإبداع وأشرت إلى استمرار جمعة اللامي الى يومنا هذا في طرح مشروعه الإبداعي ضمن تجريبيته المؤثرة إلى يومنا هذا.

٣- اذا كان مقدم البرنامج قد اعلن انه لم يقرأ رواية عراقية هذا الشهر، فأحسب انه كان يقصد رواية جديدة، ذلك أنه يعمل حاليا على دراسة لغة السرد العراقي كجزء من متطلبات دراسة الدكتوراه الخاصة به، وأنا هنا لا أدافع عن عارف الساعدي فهو الكفيل بنفسه ولكني اقر حقيقة اعرفها ولم تظهر مجساتها في الندوة.

٤- لا احد منا اقر باختفاء الكاتب العراقي، ولكن البيضاني أشار بشكل عام الى كسله وتداخل حياة من هم في داخل العراق بالكثير من المشكلات،ولم أكن منسجما معه أو مع المحاور في هذا الطرح أو سواه،لا استطيع ان أنكر كل الجهد الروائي العراقي الذي يبذل وما كنت كذلك يوما وقد كتبت عن بعضه واشرت في الندوة الى جهد هدية حسين وامجد توفيق فيما أشار البيضاني الى جهد ميسلون هادي ، وكنا بذلك نقدم امثلة على استمرار العطاء.

٤- احسنت ميسلون في التركيز على موضوع واحد هو الرواية العراقية الحديثة التي ظلمت – في رأيها- في الندوة متناسية أن الندوة لم تكن مخصصة للرواية العراقية بعد احداث ٢٠٠٣ بل لعموم التجارب السردية، وقد جرى الحديث – من قبلي في الأقل – عن مشروع جماعة الوقت الضائع التجديدي وعن روايات غائب والتكرلي وقبلهما محمود السيد وجعفر الخليلي وذو النون ايوب وكان البيضاني محاورا نشطا في تحليل تجارب هؤلاء،ولا احسب ان العزيزة ميسلون تستطيع تجاهل كل هذا الجهد الذي يحتاج لإيضاحه الى حلقات يشارك فيها الفضائيون الجدد – كما اسمتنا مشكورة .

٥- أشارك الروائية في ضرورة اهتمام وزارة الثقافة بالنتاج الروائي العراقي وأصارحها اني في حالة يأس من ذلك فالمبالغ الكبيرة تصرف على الايفادات وعلى مؤتمرات مظهرية ولكننا نرجو ونرجو !

٦- قبل ان تبدأ ميسلون الكتابة كنت اكتب عن الرواية العراقية وما أزال،وأنا شاكر لها حماستها هذه ومعجب بجهدها الإبداعي ولكني ولسبب شخصي لا استطيع الإحاطة بكل خارطة الكتابة السردية اليوم ولكل كتاب الرواية والقصة العراقيين جميل احترامي ولميسلون كل تقديري.

مراجعات

"وحدها شجرة الرمان" للعراقي سنان انطون

عندما يتحول الكابوس إلى لحظة يومية واللحظة اليومية إلى كابوس

صلاح حسن
بغداد

قبل ثمانية عشر عاما كنت قد وصلت إلى دمشق هاربا من سيف الديكتاتور بعد صدور حكم بالإعدام علي ، وفي أول مقابلة صحفية لي هناك قلت إن الأدب العراقي الذي سيلي مرحلة الديكتاتورية سيكون أدبا كابوسيا تماما . اليوم وبعد مرور هذه السنين صدرت روايات عراقية جديدة ولأسماء كانت صامتة لأسباب يعرفها الجميع لكنها ليست كابوسية كما كنت أتوقع فقط ، بل هي الجحيم بعينه.

خلال اقل من شهر قرأت عددا من الروايات الصادرة حديثا عن أوضاع العراق خلال الأربعين سنة الماضية وحتى هذه اللحظة فشعرت إن رأسي امتلأ بالجثث والدم والأشلاء ، الخوف والترويع والصدمات النفسية والجنون بأشكاله كافة هي مواضيع هذه الروايات ، لكن الملفت إن الخوف هنا في هذه الحكايات لا يؤدي إلى فقدان الوعي لا هو ولا الصدمات النفسية لأنها من طابع آخر نسمع به لأول مرة .

في رواية الشاعر سنان انطون الجديدة " وحدها شجرة الرمان " يود القارئ لو انه لم تقع في يده هذه الرواية لأنه لا يستطيع الفكاك من جحيمها . يولد سارد الرواية في منطقة الكاظمية ببغداد لعائلة بسيطة الحال تمتهن غسل الموتى وتكفينهم ويبدأ بمساعدة والده في العمل أثناء سني المراهقة لكنه سرعان ما ينجرف نحو الفن ويختار الاحتفال بالحياة بعيدا عن الموت وطقوسه . انه يتمرد على والده لأنه يصر على دراسة النحت في أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد . لكن انهيار الاقتصاد العراقي أثناء الحصار الاقتصادي وشظف العيش في التسعينيات لا يسمح له بتحقيق أحلامه بأن يصبح نحاتا معروفا، فيعمل صباغاً لبيوت حديثي النعمة وتجار الموت .

بعد الحرب الأخيرة والاحتلال الأمريكي وموت والده وتفاقم البطالة يضطر إلى ممارسة المهنة ذاتها التي ظل يهرب منها طوال حياته فيعود إلى غسل الجثث وتكفينها . وبتفاقم العنف الطائفي ونشوب الحرب الأهلية تتراكم الجثث أمامه بشكل يومي ويهيمن الموت على حياته بشكل مطلق . لكن حتى الموت وطقوسه يكتسبان معاني جديدة في زمن الطائفية والقتل المجاني . كيف يتعامل الإنسان مع طوفان الموت اليومي مع انهيار كل الثوابت والمؤسسات الاجتماعية وتحول مدينته إلى غابة موت ؟ كيف يحافظ على إنسانيته ؟

تتعمق الرواية عبر لمة تاريخ فرد عاصر الدكتاتورية والاحتلال والحرب الطائفية في التاريخ العنيف والمعقد الذي عصف بالعراق بأكمله وتعيد طرح أسئلة أزلية عن علاقة الذات بالموت وعن صراعها مع المؤسسات الاجتماعية والسياسية والتاريخ الذي يجرف ويقتلع بلا رحمة ولا هوادة . ما يميز هذه الرواية،بالإضافة إلى تعاملها مع موضوع طقوس غسل الموتى وتكفينهم الذي لم يطرق سابقاً في الرواية العربية هو أنها لا تتهيب من التعامل مع موضوع الطائفية وخطابها الذي استشرى في المجتمع العراقي في السنين الأخيرة وأضحى علامة فارقة والعملية السياسية والاجتماعية الأكثر سطوة في التعامل اليومي . إنها رواية عن جحيم الحياة اليومية في بغداد تحت وطأة الموت الذي افترس المدينة وأعاد رسم حدودها ، لكنها أيضا تحتفي بصمود الإنسان وإصراره على البقاء .

الرواية لا تبدأ من البداية العادية لكل رواية ، يشعر القارئ إنها بدأت قبل ذلك بقليل . يستفيد انطون من تقنيات السينما ويوظفها بطريقة مدهشة . الشاب الذي يعمل بغسل الموتى يعاني كابوسا ، إذ يرى حبيبته وهي ممددة على دكة ، هي ميتة ولكنها تتكلم وهو حي ولكن لا يسمع صوته . هذا المدخل السينمائي الغامض والمثير في الوقت نفسه سيقدم تصورا لما ستكون عليه الأحداث بعد نهاية الفصل الأول مباشرة لكن ليس من الممكن التنبؤ بما سيجري بعد ذلك .

تقنية الفلاش باك ليست جديدة لكن الاستخدام الجيد لأي تقنية يجعلها صالحة دائما وهذا ما قام به سنان انطون في هذه الرواية الكبيرة التي تصلح لأن تكون شريطا سينمائيا . الزمن في هذه الرواية دائري وعائم ومتداخل وهي تقنية ساهمت في تعميق الحبكة الروائية وحافظت على إيقاع الحكاية الواقعية حتى النهاية . يختلط الكابوس بالحياة العادية في بغداد ولا يعود الفرد يفرق بينهما بعد اشتداد الحرب الأهلية ، ما يعمق هذا الإحساس هو العمل الذي يقوم به هذا الشاب وهو تغسيل الموتى وتكفينهم ولكن أي موتى أولئك الذين يقوم بتغسيلهم وتكفينهم ؟ هنا تكمن الحكاية .

إنهم ضحايا الاحتلال والحرب الأهلية والانتحاريين والخاطفين والمقاومة وكل من هو مولع برؤية مشهد الدم ، وجثثهم المجهولة الهوية أما تصل ناقصة بدون رأس أو أن يصل رأس بدون جسد ، محروقة ، مثقبة ، مقطعة ، غريقة في نهر دجلة . يتعامل هذا الشاب بشكل يومي مع هذا الواقع الذي يجتاز الكابوس إلى ما هو جحيمي وغير قابل للمقارنة بأي شيء له علاقة بالخيال فيتحول كابوسه إلى لحظة عادية معيشة بكل تفاصيلها ، وتتحول لحظته العادية إلى كابوس .

تكمن أهمية الرواية في كونها تعالج موضوعا ظل بعيدا عن متناول الرواية العربية وهي بالإضافة إلى ذلك تقدم صورة واقعية للغاية عما حدث في العراق من عنف غير مسبوق أثناء الاحتلال والحرب الطائفية وفترة الديكتاتورية البشعة.